الاستعارة غادة البيان العربي

الدكتور حميد قبايلي
كلية الآداب واللغات
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

ملخص البحث

[تتناول هذه الدراسة مفهوم الاستعارة لغة واصطلاحا،ثم ترصد تطورها عند النقاد– قدامى ومحدثين– من خلال آرائهم النقدية والبلاغية،بدءا بالجاحظ ومرورا بابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وقدامة والرماني وأبي هلال العسكري وابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني وصولا إلى السكاكي.

كما تُعرِّج الدراسة على آراء المحدثين أمثال:بكري شيخ أمين وفايز الداية وصبحي البستاني وغيرهم.

كما أُشير بادئ ذي بدء أن مفهوم الاستعارة، لم يكن واضح الحدود على مر العصور، فقد تنوَّع من ناقد إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، ولا يهمني إذًا استعراض كل التعريفات البلاغية للاستعارة عبر العصور، بقدر ما يهمني محاولة استخلاص، وتحديد بنيتها، وآليتها للوصول إلى إبراز دورها في التصوير الفني، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بيان حدود تمايزها عن الأوجه البيانية الباقية المؤلِّفة للصورة الفنية.]

RESUME :

La présente étude porte sur la notion de métaphore ainsi que sur son développement, à la fois, chez les critiques anciens et contemporains. Nous exposerons leurs points de vue en rhétorique. Pour ce faire, nous évoquerons des savants tels que: Al Jahid, Ibni Kotiba, Almobarad, Ibn Almotaz, Kodama, Arromani, Abbi Hillal Al Askari, Ibni Rachik, Abd Elkahir Al Jorjani et Assakaki.

L'étude traite également les positions critiques de certains chercheurs contemporains comme Bikri Chaikh Amine, Fayez Eddaya et Sobhi Albostani … etc

Nous mettrons d'abord l'accent sur le fait que la notion de métaphore variait d'une époque à l'autre. De fait, il y a eu divergence en termes de sa perception chez les différents critiques.

Nous n'allons pas faire le tour des définitions relatives à la métaphore. Mais, nous allons plutôt déterminer son statut ainsi que son mécanisme intrinsèque. L'objectif est de montrer son rôle dans la figure artistique, d'une part, et de montrer ce qui la rend singulière par rapport aux autres figures de style.

في تحديد المفهوم المعجمي والاصطلاحي:

الاستعـارة :

– ماهية الاستعارة :

1– مفهوم الاستعارة لغة :

إنَّ أول ما نتوقف عنده من الأوجه البيانية: الاستعارة، بِعدِّها الوجه البلاغي الأهم، ولعلاقتها الوطيدة بالصور الشعرية، وسنعرِض قبل كل شيء لحدِّها اللغوي:

قال " الأزهري": « **وأما العارية، والإعارة، والاستعارة، فإن قول العرب فيها: هم يتعاورون العَواري، ويتعوَّرونها بالواو، كأنهم أرادوا تفرقة ما بين ما يتردد من ذات نفسه، وبين ما يُردَّد. قال: والعارية منسوبة إلى العارة، وهو اسم من الإعارة. تقول: أعرته الشيء، أُعِيره إعارة وعارة، ويقال: استعرت منه عارية فأعارنيها ... واستعاره ثوبا، فأعاره إياه، ومنه قولهم: كير مستعار، قال " بشر بن أبي حازم"**

كأن حفيفَ مِنخره إذَا مَا كتمن الرَّبو كيرٌ مستعار

قيل في قوله (مستعار) قولان، أحدهما: أنه استُعير فأسرع العمل به مبادرة لارتجاع صاحبه إياه؛ والثاني أن تجعله من التعاور، يقال: استعرنا الشيء واعتورناه وتعاورناه بمعنى واحد، وقيل: مستعار بمعنى متعاور: أي متداول » [1]

ومن خلال ما سقته في التعريف اللغوي أشير إلى العلاقة التي ينبغي أن تتوافر بين المعير والمستعير، هذا لا يقع إلا بين طرفين متعارفين. ويوضح ابن الأثير هذه العلاقة في قوله: «**المشاركة بين اللفظين في نقل المعنى – في الاستعارة – من أحدهما إلى الآخر، كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر** »[2] .

2– مفهوم الاستعارة اصطلاحا :

أُلفِت بادئ ذي بدء أن مفهوم الاستعارة، لم يكن واضح الحدود على مر العصور، فقد تنوَّع من ناقد إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، ولا يهمني إذاً استعراض كل التعريفات البلاغية للاستعارة عبر العصور، بقدر ما يهمني محاولة استخلاص، وتحديد بنيتها، وآليتها للوصول إلى

إبراز دورها في التصوير الفني، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بيان حدود تمايزها عن الأوجه البيانية الباقية المؤلِّفة للصورة الفنية.

ولما كانت تعريفات الاستعارة كثيرة، متشعبة ومعقَّدة عند بعض البلاغيين، فإنني أورد هذا التعريف لما ألمس فيه من دلالة شاملة لحدِّ الاستعارة عند كل من تعرَّض لتعريفها تقريبا.

– الاستعارة ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابَهة، أي أُستعمل في غير ما وُضع له، لعلاقة المشابهة، ومع قرينة مانعة من إرادة المعني الحقيقي الذي وضع اللفظ له، كقول " المتنبي " وقد قابله ممدوحه وعانقه :

فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَحْرُ نَحْوَهُ ولاَ رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

إنَّ الاستعارة في لفظة (البحر) المستعملة استعمالا مجازيا، لما تحمِل من (مشابهة) للممدوح في معانٍ كثيرة: كالقوة والاتساع والجود الدائم والكرم...، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي هي نسبة (المشي) إلى البحر .

3- تطور مفهوم الاستعارة:

إنني لا أزعم أن التعريف الذي سقته سابقا شامل وجامع، فمفهوم الاستعارة عرف تطورا في الدلالة عبر العصور المختلفة، وبخاصة عند النُّقَّاد العرب المحدثين وعند الغربيين، فإن كنا نجد عند نقادنا القدماء تركيزهم – في تعريف الاستعارة– على علاقة المشابهة بين طرفيها، فإننا نجد أن المحدثين وسَّعوا إطار هذه العلاقة، وأضافوا إليها علاقات جديدة، فقد تنوعت دلالتها – عندهم — من مرادف للصور الشعرية التي تدل على كل تعبير من خلال الصور إلى مرادف للمجاز، إلى التعبير كل تقارب بين حقيقتين يوجد بينها تشابه، إلى عملية النقل من دلالة إلى أخرى .

4- آراء النُّقَّاد في الاستعارة:

لست بحاجة إلى رصد حياة فن الاستعارة عند اللغويين والمفسرين والأدباء والبلاغيين من التعريفات المتفرقة إلى أن صارت بناء متماسكا، وفنا مستقلا من أقسام علم البيان، غير أنني لا أقلِّل من قيمة ما قيل بصددها، ولا استهين بجهود السابقين في شأنها، فهُم من له الفضل في

تأصيلها وتأسيسها ولا غنى لكل دارس عن آرائهم فيها، وإن كان في حاجة إلى جهد جهيد، لاستخلاص زبدتها وتوضيح معالمها، لأنها (الاستعارة) لم تكن مبوَّبة ومنظَّمة بل كانت متناثرة على صفحات مؤلَّفاتهم

ولمزيد من توضيح لمفهوم الصورة الاستعارية – التي هي جانب من جوانب دراستي في شعر حسَّان ابن ثابت في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) – رأيت أنه من الضروري استعراض الآراء النقدية المختلفة – قديما وحديثا – في مفهوم الاستعارة.

1.4– الاستعارة عند "الجاحظ" (المتوفى عام 255 ه) :

تحدَّث "الجاحظ" عن الاستعارة في كتابه (البيان والتبيين) فعرَّفها بقوله: « **الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه** » [3].

ومن يتأمل تعريف "الجاحظ" للاستعارة يجده لا يبعد بها عن التعريف اللغوي، فهي عنده: نقل لفظ من معنى عُرف به في أصل اللغة إلى معنى آخر لم يُعرف به، والجدير بالذكر أن "الجاحظ" لم يُقيِّد هذا النقل بقيد أو شرط، ولم يوضِّح الغرض من هذا النقل، ولم يبيِّن علاقة الاستعارة بأصلها الذي هو التشبيه. كما أن "الجاحظ" لم يخصَّ الاستعارة بعلم البيان أو البديع لأن التخصيص العلمي لم يكن قد وُجد في عصره .

2.4 – الاستعارة عند "ابن قتيبة" (المتوفى عام 276 ه):

تحدَّث "ابن قتيبة" عن الاستعارة في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، عندما تعرَّض لما أُشكل على المفسرين من آيات القرآن وألفاظه، وبخاصة الألفاظ التي أُستعملت في غير ما وُضعت له في أصل اللغة، فقال: « **فالعرب تستعير الكلمة، فتضعها مكان الكلمة إذا كان المُسمى بها، بسبب من الأخرى، أو مجاور لها، أو مشاكل، فيقولون للمطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل، قال " معاوية ابن جعفر بن كلاب " مِعوذ الحكماء**

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وإِنْ كَانُوا غِضَابًا

يريد إذا نزل المطر بأرض قوم فأخصبت بلادهم، سرنا ورعينا نباتها، وقد عبَّر بكلمة السماء عن المطر فأجتاز بها وضعها الأصلي » [4]

و الملاحظ أنَّ "ابن قتيبة" يفهم الاستعارة بأنها كلمة توضع مكان الأخرى لعلاقة بينهما ،هي إمَّا (علاقة السببية) أو (المجاورة) أو(المشاكلة)، والبيت الذي أورده يوضِّح علاقة (السببية) في الاستعارة.

3.4 – الاستعارة عند " المبرَّد" (المتوفى عام 285هـ) :

عرَّف "المبرَّد " الاستعارة بأنها: « **نقل اللفظ من معنى إلى معنى** »[5] ،من غير أن يُقيِّد هذا النقل أو يشترط له شروطا، ويظهر هذا واضحا من تعليقه على قول "الرَّاعي" :

يَا نُعْمَهَا لَيْلَةً حَتىَّ تَخُونَهَا   دَاعٍ دَعَا فِي فُرُوعِ الصُّبْحِ شَحَاجِ

يقول "المبرَّد": « **وشحاج إنما هو استعارة في شدة الصوت، وأصله للبغل، والعرب تستعير بعض الألفاظ للبعض** » [6]، و"المبرَّد" في ذكره للاستعارة، لم يقصد عدَّها من البيان، وإنما أراد أنَّ ألفاظا أو عبارات اجتازت موضعها الأصلي، وأُستعملت في معنى آخر، ونسمى هذا الاستعمال استعارة.

ونستطيع أن نجمل هذه الملاحظات حول الاستعارة في هذه الحقبة من الزمن من "الجاحظ" إلى "المبرَّد" فيما يلي :

- التطور اللفظي في التعريف، " فالجاحظ " اكتفى في تعريفها أنها نقل للفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لم يُعرف به، ولم يُشر إلى العلاقة بين المعنييْن: الأصلي والمنقول إليه.
- إنَّ " ابن قتيبة " زاد على تعريف الجاحظ للاستعارة، ذِكر العلاقة بين المعنيين بالإشارة إلى علاقتي السببية أو المشابهة.
- البلاغيون في هذه الحقبة الزمنية كانوا يقصدون من وراء هذا النقل إيضاح الفكرة دون التَّعرض إلى الإغراق في الخيال، أو البعد باللفظ عن حقيقته، وما لذلك من أثر فني في التعبير. وكأنَّ معيار الجمال عندهم هو التَّوضيح لا غير.

إنَّ تعريف الاستعارة في هذه الحقبة يعتوِره قصور واضح؛ لأنها لا تمنع دخول غير الاستعارة فيها، كالتشبيه محذوف الأداة والمجاز الذي يُبني على غير المشابهة

4.4 – الاستعارة عند "ابن المعتز" (المتوفى 296 هـ) :

عرَّف "ابن المعتز" الاستعارة بأنها: « **استعارة الكلمة لشيء لم يُعرف بها من شيء قد عُرف بها، مثل: أم الكتاب، ومثل :جناح الذُّل، ومثل :قول القائل الفكرة مخ العمل، فلو كان قال: لب العمل لم يكن بديعا** ».[7]

والملاحظ أنَّ "ابن المعتز" قد تحدَّث عن الاستعارة تحت اسم البديع، فتعرَّض إلى الاستعارة والتَّجنيس، والمطابقة، ورد أَعجاز الكلام على ما تقدَّمها، والمذهب الكلامي؛ رغم أن الاستعارة في عرف البلاغيين تُدرج ضمن علم البيان. وتعريف " ابن المعتز" أيضا، غير مانع، إذ لا يمنع دخول غير الاستعارة فيها: كالأعلام المنقولة والمجاز بأنواعه .

5.4 – الاستعارة عند " قدامة بن جعفر"، (المتوفى عام 337 هـ):

لم يتحدث " قدامة بن جعفر" عن الاستعارة في كتابه (نقد الشعر) حديثا مباشرا، ولم يورد لها بابا خاصا أو عنوانا مفصَّلا كغيرها من الألوان البلاغية، وإنما تحدث عنها في إثناء كلامه عن (المعاضلة) التي هي «**مداخلة الشيء في الشيء** »[8]. أما في كتابه الثاني (نقد النثر) فقد عرَّف الاستعارة بقوله: « **هي استعارة بعض الألفاظ في موضع بعض، على التوسُّع والمجاز** » [9] .

وتبيَّن لنا مما سبق أن الاستعارة عند " قدامة بن جعفر " ضرب من المعاضلة، غير أنه يميِّز في هذه المعاضلة بين الفاحش والمقبول، فالمقبول عنده: هي التي لم يفرِّط فيها المتكلم بإبهام الفكرة، والبعد بها عن الوضوح، وغير المقبول ما كانت عكس ذلك، ويورد لذلك شاهدين للتمثيل لما ذهب إليه، فمثال المقبول قول "امرئ القيس":

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجَازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ[10]

فكأنه أراد: أن هذا الليل في تطاوله كالذي يتمطى بصلبه؛ لأن له صلبا وهذا مخرج لفظه إذا تؤُمِّل

ومثال غير المقبول قول " أَوس " :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا نَصَحَتْ بِالمَاءِ تَوْلَبًا جَدَعَا *

فسمى الصبي تولبا وهو ولد الحمار، وهذا من باب فاحش الاستعارة، كما يسميه.

6.4 – الاستعارة عند "الرُّمَّاني" (المتوفى عام 384 هـ):

عرَّف "الرُّمَّاني" الاستعارة في كتابه (النّكت في إعجاز القرآن) بقوله: « **الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة** »[11]. وبهذا فهو يحذو حذو سابقيه في تعريف الاستعارة، غير أنّه فرّق بين الاستعارة والتشبيه؛ بأنّ التشبيه بأداة التشبيه في الكلام، وهو على أصله لم يُغيَّر في الاستعمال، وليس كذلك في الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة له في أصل اللغة .

7.4 – الاستعارة عند "أبي هلال العسكري" (المتوفى عام 395 هـ):

تحدَّث "أبو هلال العسكري" عن الاستعارة في كتابه (الصناعتين) تحت كلمة (بديع) وهو يقصد بهذه الكلمة (الطريف والجديد من الكلام)، فعرَّفها بقوله:« **الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك (إمَّا) أن يكون شرح المعنى، وفضل الإبانة عنه (أو) تأكيده والمبالغة فيه (أو) الإشادة إليه بالقليل من اللفظ، (أو) يحسن المعرض الذي يبرز فيه. وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة** ».[12]

وإذا قارنَّا تعريف "العسكري" للاستعارة بتعاريف سابقيه، نجد أنَه كان أوضح وأبين، لأنه أبرز الأغراض التي من أجلها جاز هذا النقل، وهذه الأغراض هي: شرح المعنى وتقريبه من ذهن السامع، وتوضيحه في نفسه وتأكيده، وكذا المبالغة في إدخال المشبه في جنس المشبه به أو نوعه، وتقديم المعنى صورة غير معهودة تتشوق النفس إلى معرفتها، والإشارة إلى المعنى الكثير باللفظ القليل (الإيجاز)، وتزيين العبارة وإبرازها في حلّة قشيبة تعشقها النفس وتنجذب إليها الحواس.

ومن الأمثلة التي ساقها في هذا الموضوع في القرآن، قوله تعالى:[**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ**][13]. وحقيقة الكلام في قوله (سنفرغ) سنقصد، فاستُعير الفراغ للقصد، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأنَّ القصد لا يكون إلا مع الفراغ، ولكن في الفراغ في المعنى المجازي معنى ليس في القصد، وهو التهديد والوعيد، ومن أجل هذا كانت الاستعارة في الآية أبلغ من حقيقتها .

ومن الشواهد الشعرية التي أوردها، قول "امرئ القيس" :

وَقَدْ أَغْتَدِي والطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ **

وحقيقة (قيد الأوابد) مانع من الذهاب والإفلات، والاستعارة في البيت أبلغ من الحقيقة لأن الإنسان يشاهد ما في القيد من المنع فلا يشك فيه، وكذلك فإن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف.

8.4 – الاستعارة عند "ابن رشيق" (المتوفى سنة 463 هـ):

يذكر "ابن رشيق" تعريف الاستعارة في كتابه: (العمدة)، فيقول: « **الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حُلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام، إذا وقعت موقِعها ونزلت موضعها** »[14].

و المتأمِّل لما أورد ابن" رشيق" في تعريف الاستعارة يسجل ما يلي :

– أنه يوجب عدم الإغراق في الاستعارة، والبعد بين المستعار منه، والمستعار له، حتى لا يؤدي ذلك إلى إيجاد تنافر بينها .

– ألا تقرب الاستعارة كثيرا حتى لا تكاد تتميَّز عن الحقيقة. وبذلك يتوسط بين موقفين في الاستعارة :

- موقف من يرى في الغلو في الاستعارة والبعد بها جمالا وبلاغة .
- موقف من يرى الاستعارة القريبة أبلغ من البعيدة حتى لا توصف بالتَّعمية.

9.4 – الاستعارة عند "عبد القاهر الجرجاني" (المتوفى عام 471 هـ) :

يعرِّفها "عبد القاهر الجرجاني" بقوله: « **واعلم أن الاستعارة في الجملة أن تكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وُضع، ثم يستعمل الشَّاعر أو غير الشَّاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية** »[15]

وهي كذلك « **ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم من الشيء** »[16].

وهي عنده قسمان: مفيدة وغير مفيدة:

– غير المفيدة: وهو نوع قصير الباع، قليل الاتساع، حيث تراهم قد وضعوا للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب أجناس الحيوان بقصد التوسع في اللغة، ومثَّل لها بأمثلة منها قول:

"العجاج": (وَفَاحِمًا ومِرْسَنًا مُسَرَّجَا). فالاستعارة عند "عبد القاهر" هي في لفظ (المرسن) الذي هو في الأصل للحيوان. فاستعاره الشَّاعر لمحبوبته.

ويعقِّب "عبد القاهر الجرجاني": أنّ الشَّاعر إذا استعمل شيئا في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه، ونقله عن أصله، وجاز به موضعه. ويعُدّ "عبد القاهر" هذا النوع من الاستعارة مبتذلة وعامِّية .

– وأما المفيدة: فهو النوع الذي يُعتد به، فهي جامعة لصفات الحسن، والجمال، والروعة الفنية ومبناها التشبيه. « **وهي تعمل على بيان الفكرة وتوضيحها، لأنَّها تبرز البيان في صورة مستجدة، تزيده قدرا ونبلا، حتى ترى بها اللفظة المفردة قد تكرّرت في مواضع، ولها في كل موضع معنى مفرد، وهي تعطي الكثير من المعاني بالقليل من اللفظ حتى تخرج من الصّدفة الواحدة عدة من الدرر، وتَجني من الغصن الواحد أنواع الثمر** »[17].

وانطلاقا من هذا النص يكشف لنا "عبد القاهر" عن فائدة الاستعارة التي تتلخَّص عنده في إبراز الفكرة واضحة جلية، وإظهار الصورة في مظهر حسن تعشقه النفوس، وتميل إليه القلوب، وتهتز له العواطف، وتتغذى به الأسماع. « **فإنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقا والأعجم فصيحا، والأجسام الخُرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جليَّة ... إن شئت أَرَتْكَ المعاني اللطيفة – التي هي من خبايا العقل– كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطَّفَت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون** »18.

ثم قسّم الاستعارة المفيدة قسمين: استعارة تصريحية واستعارة مكنية، وإن لم يشر إلى التسمية لكنه أشار إلى الأولى بقوله: « **أن تنقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف، وذلك كقولك: (رأيت أسدا)، وأنت تعني رجلا شجاعا، (ورنّت لي ظبية) وأنت تعني امرأة، (و أبديت نورا) وتعني: هدى وبيانا وحجّة، وما شاكل ذلك، فالاسم في هذا كله كما تراه ،متناولا شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه، فإنه يقال عُني بالاسم وكنَّى به عنه، ونقل عن مسماه الأصلي، فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة في الشبيه** »[19].

وأشار إلى الثانية بقوله: « **أن يُؤخذ الاسم عن حقيقته، ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يُشار إليه، فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي أُستعير له، وجُعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبا منابه، ومثاله قول "لبيد" :**

وَ غَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَمَالِ زِمَامُهَا***

وذلك أنه جعل للشمال يدا، ومعلوم أنه ليس هناك مُشار إليه، ويمكن أن تجري اليد عليه، كإجراء الأسد والسيف على الرّجُل في قولك: (انبرى لي أسد يزأر)، و(سللت سيفا على العدو لا يفلّ) » [20]

ثم فرّق بين النوعين بقوله: « **ويفصِل بين القسمين إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجدته يأتيك عفوا؛ كقولك** (**رأيت أسدا**) **أي رأيت رجلا كالأسد، ورأيت مثل الأسد، أو شبيها بالأسد، وإن رُمته في القسم الثاني لا يواتيك تلك المواتاة، إذ لا وجه لأن يقول:** (**إذا أصبح شيء مثل اليد للشمال**) **وإنما يتراءى التشبيه بعد أن تخرِق إليه سترا وتُعمل تأملا وفكرا** »[21].

واشترط" عبد القاهر " في الاستعارة أن يكون وجه الشبه، وهو الرابطة بين المستعار منه والمستعار له، أوضح في المستعار منه. كما أنه قسَّم الاستعارة: إلى استعارة محسوس لمعقول، واستعارة محسوس لمحسوس للشبه في أمر معقول، واستعارة معقول لمعقول. فقال: « **إنّ ما يجب أن تعلم أن في معنى التقسيم لها، أنها على أصول :**

– **أحدهما: أن يُؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة.**

– **ثانيها: أن يُؤخَذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلي.**

– **ثالثها: أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول** »[22].

ثم أتبع هذا التقسيم بالتَّمثيل لكل ضرب، فمثّل للضرب الأول (باستعارة النور للبيان والحجة) وللضرب الثاني بقوله (صلى الله عليه وسلم): « **إيّاكم وخضراء الدمن** »، وللضرب الثالث بتشبيه الوجود بالعدم والعدم بالوجود .

ثم فضّل الاستعارة العقلية على غيرها، لما فيها من بعث للخيال وتحريك الذهن وإلطاف الروية، ثم بيّن مواضع حسن الاستعارة أو متى تكون، مستشهدا بالأمثلة مستخرجا لمواطن الجمال فيها بأسلوب أدبي رائع، كما أنه عقد فصلا للفرق بين الاستعارة والتمثيل، لأن التمثيل تشبيه في الحقيقة والاستعارة مبنية عليه، مع زيادة فائدة جديدة هي المبالغة والإيجاز.

كما فرّق بين الاستعارة والتشبيه البليغ أي المحذوف الأداة وإن سبقه "الجرجاني بن عبد العزيز" إلاّ أنّ "عبد القاهر" أضاف الكثير من الأمثلة، والتوضيح في الفكرة .

وخلاصة القول: إن"عبد القاهر" في دراسته للاستعارة، قد أبرزها في صورة جميلة وواضحة، كما أنه يعود له الفضل في التقسيمات التي عرفتها (الاستعارة) في عهده مما يدل على ذكائه وتعمّقه في التحليل. ومما لا شك فيه أن الاستعارة خاصة، والألوان البلاغية عامة قد خطت خطوات واسعة في التجدد والتطور. وما يؤخذ عليه – كبقية سابقيه – أنه لم يجمع الاستعارة في باب واحد حتى يسهل تناولها.

10.4- الاستعارة عند "السَّكَّاكي" (المتوفى عام 626 هـ):

لا بد أن أشير في البداية: أن الاستعارة عرفت في بداية القرن السابع الهجري تطورا ملحوظا عند نخبة من أعلام النقد والبلاغة، والمنطق والفلسفة، منهم: " السَّكَّاكي "، و"ابن الأثير" و"ابن أبي الإصبع " غير أنني أجد نفسي مضطرا إلى الاقتصار على رأي "السَّكَّاكي" في الاستعارة، وهذا ليس من باب إهمال آراء العلماء الآخرين والاستهانة بها، بل من باب الإيجاز والاختصار.

وحدُّها عند " السَّكَّاكي ": « **أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثبات للمشبه ما يخص المشبه به، كما تقول: في الحمام أسد وأنت تريد به الرجل الشجاع، مدعيا أنه من جنس الأسود لتثبت للرجل الشجاع ما يخص المشبه به، وهو اسم جنسه، مع سد طريق التشبيه بإفراده بالذكر، أو كما تقول: (إنَّ المنية أنشبت أظفارها بفلان) وأنت تريد السَّبُع بادعاء السبعية وإنكار أن يكون شيئا غير السبع، فثبَّتَّ لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار** » [23].

وبالنّظر إلى ما تقدّم من تعريف "السَّكَّاكي" للاستعارة، نجد أنه يتناولها بنوعيها: التصريحية وهي التي مثَّل لها بقوله (في الحمام أسد)، والمكنية، وهي التي مثّل لها بقوله (إن المنية أنشبت أظفارها بفلان)، فعرّف الأولى (التصريحية) بقوله: هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه، هو المشبه به. وعرف الثانية (المكنية) بقوله: هو أن يكون الطرف المذكور هو المشبه.

وفي مجال تقسيم الاستعارة وذكر أنواعها المتعددة، نجد البلاغيين وخاصة المتأخرين منهم "كالسَّكَّاكي"، يقسّمون الاستعارة باعتبارات مختلفة، فهو يقسمها باعتبار الطرفين، وباعتبار الجامع، وباعتبار الطرفين والجامع، وباعتبار اللفظ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله. وإذ أُوردُ هذه التفصيلات والتعريفات. فإني لا أريد أن أطمس جهدا بذله العلماء الأوائل في سعيهم إلى جعل البلاغة علمًا له فصول وأبواب. إلا أنني لا أريد – من جهة أخرى – الانسياق وراء هذا الاشتغال بالتقسيم والتبويب دون النظر في جمال الكلام ومحاسنه، فبلاغة الكلام هو بيت القصيد، ثم تأتي التقسيمات والتعريفات في المرتبة الثانية. وتلك هي نظرة الإمام " عبد القاهر الجرجاني " الذي نظر إلى هذه المسائل بوصفها سبلا ووسائل يُستعان بها على تصوير المعاني وإبرازها، وأنَّ جمالها وروعتها إنما تكون بحسن تمثيلها لما يُراد منها تمثيله، وإبرازها في أحسن معرض ليحدث في النفس التأثير المطلوب.

وما يلاحظ على "السَّكَّاكي" في دراسته للاستعارة خاصة والألوان البلاغية عامة، غلبة الأسلوب المنطقي الكلامي في تأليفه، كما يتوجه ويميل في كثير من أحكامه إلى التكلف والتعقيد والتبويب والتفريع، مما جعل الكثير من النُّقَّاد يحمِّلونه مسؤولية إفساد البلاغة لكثرة التعقيد والمنطق، كما أنه يكثر من الإحالة على قواعد العلوم الأخرى .

وقد حاولت قدر المستطاع، في اقتفاء أثر قصة الاستعارة، تفادي ذكر التقسيمات الكثيرة التي ذكرها بلاغيونا القدماء وأفاضوا فيها، كما أنني اقتصرت على بعض التعريفات دون الأخرى رغم أهميتها تجنبا للإسهاب، وقد توقفت عند " السَّكَّاكي "، لأن – في اعتقادي – أنَّ مَن جاء بعده لم يكن إلاَّ شارحا ومحللا، واعتبرت أن الدراسات التي جاءت من بعده هي محاولات للشرح والتبسيط ليس إلاَّ .

5 – الاستعارة عند المحدثين :

لقد حاول علماء البلاغة المحدثون تخليص الاستعارة من الشوائب التي لازمتها، وكانت السبب في طمس معالم جمالها: ككثرة التفريع والتقسيم مما أدى إلى غموضها وتعقيدها. فركَّزوا على إبراز فائدتها وتوضيح بلاغتها وحسن تصويرها، فأصبحت عندهم (المحدثين) « **قمة الفن البياني، وجوهر الصورة الرائعة، والعنصر الأصيل في الإعجاز، والوسيلة الأولى التي يُحلِّق بها الشعراء، وأولوا الذوق الرفيع إلى سماوات من الإبداع ما بعدها أروع، ولا أجمل وأحلى، فبالاستعارة ينقلب المعقول محسوسا تكاد تلمسه اليد، وتبصره العين ويشمه الأنف، وبالاستعارة تتكلم الجمادات، وتتنفس الأحجار، وتسري فيها آلاء الحياة** »[24] على حد تعبير الدكتور " بكري شيخ أمين ".

ولإدراك الاستعارة وقيمتها الجمالية في العمل الأدبي، لابد من تذوق لغوي ومعايشة للمجالات الدلالية ورموزها، وحتى يتحقق عنصر المفاجأة والمباغتة الذي يكسر الألفة، والتتابع العادي لسلسلة الدلالات في السياق، ويتولد إحساس غريب، أو جدة توقظ النفس، وتحرك أعماقها لتتفاعل مع طبيعية التَّجربة الشعورية والموقف. وينبغي إدراك إضاءة الكلمة المستعارة وإشعاع دلالتها.

ولتحليل الاستعارة وفهمها ينبغي تناولها من والوجهة الدلالية ذلك لأنَّها عند "فايز الداية": « **تُلمح قي دلالة لفظة ضمن سياق غريب عنها، فيقع تصادم أو احتكاك بين المؤدى القديم لهذه اللفظة – أي ما كانت عليه قبل انتقالها – والموقف الجديد الذي استدعاها**»[25].

وهي عنده أيضا « **ضماد بين سياقين** »[26]. وتتشكل حسبه من محورين هامين هما:

أ– الأفق النفسي وحيوية التجربة الشعورية .

ب– الحركة اللغوية الدلالية بتفاعل السياق وتركيب الجملة .

والاستعارة عند المحدثين هي غادة البيان العربي وهي عند الأستاذ "ميشيل شيريم ": «... **المحسن اللفظي الأول، أو نواة البلاغة، أو قلبها، أو جوهرها، أو كل شيء فيها تقريبا** »[27].

هذا عند بعض البلاغين المحدثين العرب. وتكتسي الاستعارة أهمية كبرى عند علماء البلاغة الغربيين فهي أهم وجه بلاغي و« **الركن الرئيسي في تكوين الشعر وفي خلق الصور**»[28].وبدونها

يقول "جيرو": « **لا يوجد شعر، لأنه بجوهره استعارة شاملة »29** وهي عند " دومارسيه" « **وجه بلاغي تنتقل به دلالة اللفظة الحقيقة إلى دلالة أخرى لا تتناسب مع الأولى إلاَّ من خلال تشبيه مضمر في الفكر»**[30]

وانطلاقا من هذا الازدواج في بنية الاستعارة، انقسم البلاغيون المحدثون في دراستهم للاستعارة إلى قسمين رئيسيين:

- قسم ركّز على المشابهة فنظر إلى الاستعارة على أنها تشبيه حذف أحد طرفيه.
- وقسم آخر ركّز على عملية الانتقال في المعنى .

ونجد لهذا التقسيم الحديث عند علماء البلاغة للاستعارة مرجعية عند القدماء، ونكاد نقع على التقسيم نفسه عند "ابن رشيق" حيث يقول في كتابه (العمدة): الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها والناس مختلفون فيها: فمنهم من يستعير للشيء ما ليس منه إليه كقول " لبيد ":

وَ غَدَاةَ رِيحٍ قَدْ وَزَعَتْ وقِرَّةٍ إِذْ أَصْبحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه، كما يقول " ذو الرمة " :

أَقَامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى الْعُودُ والنَّوَى وسَاقَ الثُّرِيَّا فِي مُلاَءَتِهِ الْفَجْرُ.[31]

ومن خلال حديثنا السالف عن الحقيقة والمجاز تبن لنا أن الاستعارة جزء من عملية المجاز، وهي في جوهرها تقوم على عملية الانتقال من دلالة أولى، إلى دلالة ثانية، والعلاقة التي تربط بينهما هي علاقة (مشابهة)، وقد ورد في معظم الكتب البلاغية القديمة حين تعرضها لحدود الاستعارة وبيان تعريفها أنَّ الانتقال في الدلالة والمشابهة هما الركنان الأساسيان للاستعارة .

« **ولا شك أن هذا الازدواج في بنية الاستعارة هو الذي جعل النُّقَّاد ينقسمون في نظرتهم إليها قسمين** » [32] كما رأينا سابقا .

فمن البلاغيين الذين ركّزوا على" المشابهة" نذكر "ابن الأثير" ومنهم من ركّز على عملية النقل في المعنى، ومن هؤلاء نذكر: "ابن المعتز" و" أبى هلال العسكري" و"الرُّمَّاني ".

هوامش:

(1) - ابن منظور: لسان العرب - 927/2.

(2) - ابن الأثير :المثل السائر،في أدب الكاتب والشَّاعر-تحقيق محيي الدين عبد الحميد- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر- 1939- 360/1.

(3)- الجاحظ: البيان والتبيين- 152/1-153

(4)- محمد السيد شيخون: الاستعارة نشأتها وتطورها - دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع —ط2- 1994- ص7

(5) - المرجع السابق نفسه - ص 7

(6) - المرجع نفسه - ص 9

(7)- عبد الله بن المعتز: كتاب البديع -تعليق وتقديم اغناطيوس كراتشوفسكي -دار المسيرة- بيروت- ط3- 1982- ص2.

(8) - محمد السيد شيخون: الاستعارة نشأتها وتطورها-ص14.

(9)- المرجع نفسه: ص 15

(10) - ديوان امرئ القيس- طبع دار صادر- بيروت- د.ت -ص48.

* - الهدم بكسر الهاء: الكساء الذي ضوعفت رقاعه. النواشر: عصب الذراع من وخارج. التولب: ولد الحمار.

(11) - الرُّمَّاني (علي بن عيسى): النكت في إعجاز القرآن- تحقيق محمود خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام- دار المعارف- القاهرة- 1968- ص 18.

(12) - أبو هلال العسكري: الصناعتين ص 295.

(13) - سورة: الرحمن، الآية: 31.

** - الوكنات: المواضع التي تأوي إليها الطير في رؤوس الجبال. والمنجرد: الفرس صغير الشعر. الهيكل: الفخم والمشرف. والأوابد: الواحد آبدة: الوحش.

(14) - ابن رشيق: العمدة -235/1.

(15)- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز- تحقيق: محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد محمود الشنقيطي- دار المعرفة للطباعة والنشر —بيروت- ط2 -1981 – ص333.

(16) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة - ص33

(17) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة - ص33

(18) - المرجع السابق نفسه ص 33

(19) - المرجع نفسه، ص34.

*** – يقال: ليلة قَرة، وذات قُرٍّ وقِرَّة : باردة

(20) – المرجع نفسه، ص 34.

(21) – المرجع السابق نفسه، ص 35- 36.

(22) – المرجع نفسه، ص50

(23) – السَّكَّاكي: مفتاح العلوم- دار الكتب العلمية -بيروت -د.ت - ص156.

(24) – بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البيان - دار العلم للملايين - بيروت - ط2 - 1984 - ص111

(25) – فايز الداية: جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي - دار الفكر المعاصر- بيروت ودار الفكر دمشق - ط2 – 1996- ص119

(26) – فايز الداية: علم الدلالة العربية، النظرية والتطبيق - دار الفكر - دمشق - 1985 ص 394،395

(27) – جوزيف ميشال شريم: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - ط2 1987 ص 71

(28)– نقلا عن صبحي البستاني: الصورة الشعرية في الكتابة الفنية الأصول والفروع، دار الفكر اللبناني بيروت - ط1 - 1986 - ص 68 - 69

(29) (30)– المرجع السابق نفسه – ص 68 – 69

(31) – ابن رشيق – العمدة – 235/1

(32) – صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص 69